﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾ [إبراهيم: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

"لَمّا بَيَّنَ أنَّهُ إنَّما أرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إلى النّاسِ ليخرِجَهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ، وذَكَرَ كمالَ إنْعامِهِ عليه وعلى قَوْمِهِ في ذلك الإرْسالِ وفي تلك البَعْثَةِ، أتْبَعَ ذلك بشَرْحِ بِعْثَةِ سائِرِ الأنْبياءِ إلى أقْوامِهِم، وكَيْفيةِ مُعامَلَةِ أقْوامِهِم معهم؛ تَصْبيرًا لِلرَّسولِ ﷺ على أذَى قَوْمِهِ، وإرْشادًا له إلى كَيْفيةِ مُكالَمَتِهِم ومُعامَلَتِهِم، فَذَكَرَ تعالى على العادَةِ المألوفَةِ قَصَصَ بَعْضِ الأنْبياءِ ﷺ فَبَدَأ بِذِكْرِ قِصَّةِ موسَى ﷺ"[1]، وإرسالِه "إلى قَوْمِهِ بِمِثْلِ ما أُرْسِلَ به مُحَمَّدٌ ﷺ وبِمِثْلِ الغايَةِ التي أُرْسِلَ لَها مُحَمَّدٌ ﷺ ليخْرِجَ قَوْمَهُ مِنَ الظُّلُماتِ إلَى النّورِ"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخۡرِجۡ﴾: الخاءُ والرّاء والجيم أصلٌ يدورُ حول النَّفاذِ عنِ الشَّيءِ[3]، يُقال: "خَرَجَ خُروجاً: برزَ من مَقَرِّه أو حالِه، سواءٌ كان مَقَرُّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُه حالةً في نفسِه، أو في أسبابِه الخارجةِ، قال اللّه تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: 21]. والإخْراجُ أكثرُ ما يقالُ في الأعيان، نحوَ: ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥﴾ [المؤمنون: 35]"[4]، و"الخُروجُ: نَقيضُ الدُّخولِ. خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا ومَخْرَجًا، فهو خارِجٌ وخَروجٌ وخَرّاجٌ، وقَدْ أخْرَجَهُ وخَرَجَ بِهِ"[5]، والمقصودُ بالإخراجِ في الآيةِ هو هدايةُ بني إسرائيلَ، وإخراجُهم ممّا هم فيه إلى نورِ الأخلاقِ الحميدةِ والفضائلِ الجميلةِ.

2) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الظّاءُ واللام والميم أصلان صحيحان، أحدُهما خلافُ الضّياء

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/64.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/188.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(4) الراغب، المفردات: (خرج).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خرج).

والنّورِ، والآخرُ وضعُ الشّيء غيرَ موضعِه تَعدّيًا[1]، و"الظُّلمات: جمع ظُلمة، ويعبّرُ بها عن الجهل، والشّرك، والفسق، كما يعبّرُ بالنّور عن أضدادِها، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257]. وقولُه: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: 122] هو كقولِه: ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰۚ﴾ [الرعد: 19]، وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام: 39]. وقولِه: ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثَةٖۚ﴾ [الزمر: 6]، أي: البطنِ، والرّحِم، والمَشيمَةِ، ويُجمعُ على ظُلَم أيضًا"[2]. ومعنى الظُّلماتِ في الآية: الجهلُ والمعصيةُ والفِسقُ.

3) ﴿ٱلنُّورِ﴾: النّونُ والواو والرّاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إضاءةٍ[3]، و"النّورُ: الضّوءُ المُنتشرُ الذي يُعينُ على الإبصارِ، وذلك ضربان: دنيويٌّ، وأخرويٌّ، فالدّنيويُّ ضربان: ضربٌ معقولٌ بعَيْن البصيرةِ، وهو ما انتشرَ منَ الأمور الإلهيةِ كَنورِ العقل ونورِ القرآن، ومحسوسٌ بعَيْن البَصَر، وهو ما انتشر منَ الأجسام النّيّرةِ كالقمرَين والنّجوم والنّيّراتِ، فمنَ النّورِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]، ومنَ المحسوس الذي بعين البصر نحوُ قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5]، ومعنى النّورِ في قوله تعالى: ﴿أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: نورِ الحقِّ والطّاعةِ.

4) ﴿بِأَيَّٰمِ﴾: الياءُ والواو والميم: كلمةٌ واحدةٌ، هي اليومُ: الواحدُ منَ الأيّام، ثم يَستعيرونَه في الأمر العظيم ويقولون نعمَ فلانٌ في اليوم إذا نزل[4]، واليَوْمُ يُعبّرُ به عن وقتِ طلوعِ الشّمس إلى غروبِها، وقد يُعبّرُ به عن مدّةٍ منَ الزّمان - أيّ مدّةٍ كانت - قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [آل عمران: 155]. وقولُه ﷻ: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾، واليَوْم "في الفَلَك مِقْدارُ دورانِ الأرْض حول محورِها، ومدّتُه أربعٌ وعِشْرونَ ساعَةً"[5]، و"العَرَب تَقول: الأيّام، في معنى الوقائعِ[6] "، "ومنَ المجاز: ذكرُ في أيّام العربِ كذا أي في وقائعِها، ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ بدمادِمِه على الكفرةِ"[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/540.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).
(5) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (يوم).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (يوم).
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: (يوم).

ومعنى ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾ في الآية أخذُهم بالشّدّةِ واللّين؛ بتخويفِهم بأيّام عادٍ وثَمودَ وأشباهِهم بالعذاب وبالعفوِ عَن آخرين[1]، أي: بنَقماتِه وشدائدِه، فالأيّامُ يُعبّرُ بها عنِ الشّدائد والوقائعِ[2]. وكذلك بِنِعَمِه[3].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تُخبرُ الآيةُ أنَّ الله تعالى قد أرسلَ رسولَه موسى ﷺ إلى قومِه ليُخرجَهم منَ الظّلمات إلى النّور، "مؤيَّدًا بآياتنا التّسعِ التي مرّت في سورة الأعراف، وقلنا له: أخرج قومَك يا موسى منَ الظّلمات إلى النّور، والمعنى: أمرْهم بالتّوحيد الخالصِ والإيمان بالله إيمانًا كاملًا ليَخرجوا من ظلمات الجهلِ والضّلالِ والمعصيةِ إلى نورِ الهُدى والإيمانِ، وذكّرْهم بأيّام الله التي مرّت على أُمم الأنبياءِ السّابقةِ، وكيف نجا المؤمنون وهلك الكافرون؟! وذكّرْهم بأسَ الله وشدائدَه وانتقاماتِه ممن كذّبَ رسالتَه كقوم عادٍ وثمودَ وقومِ هودٍ وإخوانِ لوطٍ، ففي التّذكيرِ بأيّام الله ترغيبٌ وترهيبٌ، ولقد كان لموسى مع قومه أيّامٌ فيها محنةٌ وبلاءٌ وأيّامٌ فيها نِعمٌ ونجاةٌ وكلُّها من أيّامِ الله، إنّ في ذلك التّنبيه والتّذكيرِ لَدلائلَ على وحدانيّةِ الله وقُدرتِه لكلّ صبّارٍ في المحنةِ والشّدّةِ، شَكورٍ في المِنحةِ والعطيّةِ"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

معنَى الواوِ في المَطْلعِ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ "جملةٌ مستأنفةٌ، مسوقةٌ للشّروع في تفصيل ما أجْملَه عنِ الرّسل في قوله تعالى: ﴿وَمَآ

إذا أدّى الدّاعيةُ مهامَّه فلا عليه مـن كُـفْـرِ من كَفَرَ، واسْتَحبَّ الحياةَ الدّنيا

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/68، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (يوم).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/359.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (يوم)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 641.
(4) حجازي، التفسير الواضح: 2/247.

﴿أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾"[1]، كذلك سيقتْ إلى رسولِ الله ﷺ تسليةً وتهوينًا لتكذيبِ قومِه إيّاه في كونِه رسولًا مُرسلًا إليهم منَ الله تعالى، وتهوينًا من أمر استحبابِهمُ الحياةَ الدّنيا على الآخرة، وصدِّهم عن سبيل الله ﷻ وبُغائِهم دينَ الله ﷺ عِوجًا وذلك ما سبق في أوّل هذه السّورة ونهايةِ السّورةِ السّابقةِ.

غرَضُ التّأكيدِ بالقسَمِ و(قد):

إنكارُ رسالةٍ لاحقةٍ كإنكارِ رسالةٍ سابقةٍ

خبرُ إرسالِ موسى عليه السلام معلومٌ ضرورةً لدى المخاطَبين، وهو ممّا لا يُجهلُ ليُؤكَّد وجودُه، وغرضُ ذلك التّأكيدُ "بلام القسَم وحرفِ التّحقيق لتنزيل المُنكِرين رسالةَ محمّدٍ ﷺ منزلةَ مَنْ يُنكرُ رسالةَ موسى عليه السلام؛ لأنَّ حالَهم في التّكذيبِ برسالة محمّدٍ ﷺ يقتضي ذلك التّنزيلَ؛ لأنَّ ما جازَ على المثلِ يجوزُ على المُماثل، على أنَّ منهم من قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: 91]"[2].

فائدةُ الإسنادِ في ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

رُسلُ اللهِ عظماءُ باختيارِ اللهِ لهم لوظيفةِ الرِّسالةِ

الضّميرُ (نا) في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ يُفيدُ تعظيمَ من أرسلَه الله تعالى إلى قومِه، فالمُرسَلون هم عظماءُ عند الله تعالى، باختيارِهم أنْ يكونوا حملةَ الرِّسالةِ، وبأفعالِهم التي يقومون بها تحقيقًا للحقِّ، وبشارةً ونذارةً للمَدعوّين.

معنَى (الباء) في قوله ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

الرُّسلُ مُلتصقون بالآيات التِصاقَ الرّوحِ بالجسدِ

تفيدُ (الباء) في القيدِ بالجارِّ والمجرور ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ المصاحبةَ، أي أرسلنا موسى عليه السلام بمعيَّة آياتِنا "إرسالًا مُصاحِبًا للآيات الدّالّةِ على صدقِه في رسالتِه، كما أُرسل محمّدٌ ﷺ مصاحِبًا لآية القرآن الدّالِّ على أنّه من عند الله، فقد تمّ التّنظيرُ وانتهض الدّليلُ على

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/188 - 189.

المُنكرين"[1]، فإرسالُ الآيات كان مُصاحبًا لإرسال الرَّسولِ، فهو ﷺ لِقوَّة تعلُّقه بالآيات، ووعْيِه بقيمتِها، وحرْصِه على إيصالها بكلِّ دقّةٍ وأمانةٍ متعلِّقٌ بها، ملتصقٌ بها التصاقًا مَعنويًّا، ومُلتبسًا بها.

دَلالةُ جمْعِ الآيات في قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾:

مُعجزاتُ الرّسلِ مـنَ العـظَـمةِ والـجـلالِ ما يوجِبُ الإيمانَ بصدْقِ الرُّسل

يفيدُ جَمْعُ الآيات كثرتَها وتَنَوُّعَها؛ بحيث إنّه كان يتوجّبُ على المُرسَل إليهم التّصديقُ بها، وببعثتِه ﷺ من عند الله ﷻ، وقد تنوَّعتِ الآياتُ كما قال الله تعالى في آية أخرى ﴿فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ﴾، وكانت كلُّها معجزاتٍ كبيرةً، فكانت كفيلةَ الإقناع، وبرغم كثرتِها وتنوُّعِها[2] وكوْنِ الدّعوةِ بلسانِهم ولُغتِهم عادَوْه، ولم يوقِفْهم إلّا الغرقُ في اليمِّ.

دَلالةُ إضافةِ الـ (آيات):

عظَـمـةُ الآيـاتِ كـامـنـةٌ في خَـفـيّـاتِـهـا وحـاضـرةٌ في تَجَلّياتِها

إضافةُ الـ (آيات) إلى ضمير العظَمةِ في القيدِ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ يدلُّ على عظمتِها، وتميُّزِها عمّا ألفَه القومُ منَ السِّحر الخادعِ، وأنّها (آيات) تليقُ بجلال الله ﷻ، وأنّها من وادٍ آخرَ لا عهْدَ للبشر به، فهذه يدٌ بيضاءُ مثلُ الشّمس، وهذه عصا تنقلبُ حيّةً ضخمةً عظيمةً، تتّصفُ بالخطورة، وتلتهمُ ما حولها.

ومن آيةِ العصا أنّها لم تلتهم أحدًا منَ الأناسيّ الحاضرين، ولو هاجمتْهم لفتكت بهم جميعًا في لحظات، ولَما أفلتَ منها أحدٌ منهم، إلى آخر الآيات العظيمةِ الجديرةِ بلَيّ أعناقِ القلوبِ، وعطْفِ النّفوس إلى احتضانِ أنوارِ تلك الآياتِ البيِّناتِ.

معنَى ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾:

(أنْ) تحتمـلُ الـتّـفـسـيريّـةَ والمصدريّةَ على تقديرِ حرفِ الباءِ

﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ تفسيريّةٌ لمقولِ قولٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/189.

(2) "قال الأصمُّ: آياتُ مُوسى ﷺ هي العصا، واليدُ، والجرادُ، والقُمّلُ، والضّفادِعُ، والدّمُ، وفلقُ البحرِ، وانفِجارُ العُيُونِ مِن الحجرِ، وإظلالُ الجبلِ، وإنزالُ المنِّ والسّلوى"، ينظر: الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/64.

محذوفٍ، أي: وقلنا له: أخرج قومَك، "والضّابطُ لها موجودٌ وهو أن يتقدَّمها جملةٌ فيها معنى القولِ دون حروفِه، و﴿أَرْسَلْنَا﴾ فيه معنى قلنا"[1]، "كأنّ المعنى: قلنا له: أخْرِجْ قومَكَ"[2]، ويجوزُ أن تكون ﴿أَنْ﴾ المصدريّةَ النّاصبةَ للفعل، وإنَّما صلُحَ أن توصَلَ بفعل الأمر؛ لأنَّ الغرضَ وصلُها بما تكونُ معه في تأويل المصدرِ وهو الفعلُ، والتّقدير: بأن أخرج قومك[3].

فأنِ المفتوحةُ الألفِ مع ما بعدها بتأويل المصدرِ، تجعلُ الكلامَ شأنا وقصّة وحديثًا، وتقلبُ معنى الجملة إلى الإفراد، وتصيرُ في مذهب المصدرِ المؤكّدِ، ولولا إرادةُ التأكيد لكان المصدرُ أحَقَّ بالموضع، وكنتَ تقول: (بلغني قيامُ زيدٍ) مكان (بلغني أنَّ زيدًا قائمٌ)[4]. فالتّوكيدُ هنا يَستدْعيه شدّةُ ضلالِ القوم الذين أُرْسلَ إليهم موسى ﷺ؛ ممّا تطلّب توكيدَ (الإخراج) بالحرف المصدريِّ بوصفِه علّةَ الإرسال.

بَلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿أَخْرِجْ﴾:

تَغْييرُ قناعاتِ العقولِ ومَتاعِ النّفوسِ أشدُّ من نقْلِ الأجسامِ وتَخْريكِ الأجْسادِ

الإخراجُ بمعنى إبرازِ المخرَج، ونقْلِه إلى خارجٍ: معنًى حسّي، وهو غيرُ مقصود هنا؛ لأنَّ موسى ﷺ لن ينقلَ قومَه ويخرجَهم من مكان مظلمٍ إلى مكان مُنير، بل سيُخلِّصُهم منَ الظُّلمات الرّوحيَّةِ، والتّخبُّطاتِ الفكريَّةِ، والفواحشِ الأخلاقيَّةِ إلى أنوار الإيمانِ والهُدى والصّلاحِ؛ فتَنْجو أرواحُهم، وتَرتقي عقولُهم، وتطهرُ نفوسُهم من كلّ ضلالٍ في العقيدة والفكرِ والسّلوكِ؛ "ليَخرجوا من ظُلُماتِ ما كانوا فيه منَ الجَهْلِ والضَّلالِ إلى نورِ الهُدَى وبصيرَةِ الإيمانِ"[5]،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/155.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.
(4) السامرائي، معاني النحو: 1/293 - 296.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/478.

فكان تهذيبُ ذلك فيهم مثلَ الإخراجِ الحقيقيِّ، وعليه فالآيةُ شبَّهت التَّخليصَ منَ المعنويّاتِ القبيحةِ بالإخراجِ منَ الظَّلماتِ، وصرَّحت بالمُشبَّه به وهو الإخراجُ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

تَوجيهُ إيثارِ لفْظِ (قوم):

القـومُ يقـومُ بهم صاحبُهم صَلاحًا أو فَسادًا

سبق القولُ: إنّ المقصودَ بالقوم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أمّتُه التي يدعوهم إلى الله ﷺ لا قومَه الأقربين وبخاصّةٍ، وأمّةُ موسى فريقان: فرعونُ وملؤه، وبنو إسرائيلَ، "أمّا فرعونُ وملؤه فظاهرٌ، وأمّا بنو إسرائيلَ فقد كان فرعونُ فَتَنَ جُلّهم، وأضلَّهم مع القِبطِ، فكانوا أشياعًا متفرّقين، لم يبقَ لهم دينٌ"[1]. وعلى ذلك يكونُ إيثارُ التَّعبير بـ ﴿قَوْمَكَ﴾ دون (بني إسرائيل) في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾؛ لِبَثِّ إيحاءاتٍ خاصّةٍ، منها إشعارُهُ عليه السلام بمسؤوليتِه الدَّعويّةِ للفريقَين كلَيْهما؛ لأنّهم جميعًا بمثابة قومِه، وعلى جعْلِ المقصودِ بالقومِ هنا بني إسرائيل[2] بخاصّةٍ، فالمقصودُ تحريكُ عنصرِ المسؤوليَّة كذلك تُجاهَهم.

نُكتةُ الإضافةِ في ﴿قَوْمَكَ﴾:

قـوْمُ الإنسـانِ مَسؤوليتُه ما دامَ قائِدًا لهم

من شأن الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ إثارةُ الرَّحمة في قلب موسى عليه السلام وإشعارُه بعِظَمِ المسؤوليةِ، وأنّ نجاة قومِه منَ الظّلمات إلى النّور منوطةٌ بجهوده في حسنِ التّبليغ، والصّبرِ عليهم، واحتمالِ ما قد يكونُ منهم.

وفي تلك تذكيرُ موسى عليه السلام برابطة الرَّحم، وأنّهم (قومك) الذين يعود أصلُك إليهم برغم غربتَك عنهم في مدين عشرَ سنين مدّةَ استئجارك لدى والدِ زوجتِك، وأنّهم قومُك الذين يُفترضُ فيهم توفُّرُ الثّقةِ فيك، والاحتفاءِ بدعوتِك، واحتضانِ أنوارِها أنْوارِ شريعتِك.

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/44.
(2) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللّفظي:

رسالةُ الإسلامِ هدايةُ النّاسِ كافّةً في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى الحقِّ

بين الآية الأولى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ في هذه السورة، وهذه الآية ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وجهُ تشابهٍ وافتراقٍ، فالتّشابُه في أنّ الإخراجَ في كلتا الرّسالتَين: رسالةِ نبيّنا محمّدٍ ﷺ، ورسالةِ موسى عليه السلام هو منَ الظّلماتِ إلى النّور، أمّا وجهُ المباينَةِ بين الآيتَين ففي التّعبير بصيغةِ الإخراج؛ إذ عبّرَ عنه في الآية الأولى التي خوطب فيها نبيُّنا ﷺ بصيغة المضارع ﴿لِتُخۡرِجَ﴾ الدّالِّ على الحال والاستقبال، والاستمرارِ والدّوام، وأردفَها بلفْظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ اللفظِ العامِّ، الذي يتَّسعُ ليستقصي كلَّ النّاس في كلِّ زمانٍ ومكان، ليثبتَ عالَميّةَ هذا الدّين، وكونَه الرّسالةَ الخاتمَ فالإخراجُ منَ الظّلمات إلى النّور مُتجدّدٌ لكلّ النّاس حتى يأذنَ اللّه تعالى، أمّا لفظُ الإخراج في هذه الآية التي خوطبَ فيها موسى عليه السلام فصيغَ بالأمر ﴿أَخۡرِجۡ﴾ المسندِ إلى ﴿قَوۡمَكَ﴾ ممّا يعني الدّلالةَ على الأمرِ في الحال واقْتِصارِه على قومِه فقط.

معنَى حرْفِ الجرِّ ﴿مِنَ﴾:

مُهمّةُ الرُّسلِ ثَقيلةٌ؛ لأنّها تَبدأُ بأعمالٍ جسيمةٍ ومخاطِرَ عظيمةٍ

تفيدُ ﴿مِنَ﴾ الجارّةُ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ابتداءَ الغاية، أي: تبدأ غايةُ إخراجهم من هذا الوضعِ المُزري إلى أن تنتهيَ المهمّةُ إلى وضعِهم على الطَّريق الصَّحيح، وإيصالِهم إلى حالة النّور الرّوحيّ، والهُدى القلبيّ، والطّمأنينةِ النّفسيّة، إلى دين الفطرةِ النّقيّة التي فطرَ اللّه تعالى النّاسَ عليها، وفي ذلك إشعارٌ له عليه السلام بجسامةِ المَهمّةِ، وثِقلِ التّكليف، ووجوبِ الاستعدادِ لحمل العبءِ الثّقيل.

بَلاغةُ الاسْتِعارة في الآية:

تَجسيدُ المعاني أثــورُ للعقلِ وأرسـخُ في الذّهنِ

إخراجُ قوم موسى عليه السلام ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: "منَ الشّرك إلى الإيمانِ"[1]، و"منَ الضّلالة إلى الهُدى، أو من ذُلِّ الاستعباد إلى

(1) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.

عِزِّ المملكة"[1]، و"من ظلمات شكِّهم إلى نور اليقين، ومن إشكالِ الجهلِ إلى روح العلم"[2]. فـ"الظُّلُماتُ مُسْتَعارٌ لِلشِّرْكِ والمَعاصي، والنّور مُسْتَعارٌ لِلإيمانِ الحَقِّ والتَّقْوَى، وذلك أنَّ بَني إسْرائيلَ لَمّا طالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ في مِصْرَ بَعْدَ وفاةِ يوسُفَ ﷺ سَرَى إليهمُ الشِّرْكُ واتَّبَعوا دينَ القِبْطِ، فكانَتْ رِسالَةُ موسَى ﷺ لإصْلاحِ اعْتِقادِهِم مع دَعْوَةِ فِرْعَوْنَ وقومِهِ لِلإيمانِ باللّه الواحِد، وكانَت آيلةً إلى إخْراجِ بَني إسْرائيلَ مِنَ الشِّرْكِ والفَسادِ وإدْخالِهِم في حَظيرَةِ الإيمانِ والصَّلاحِ"[3].

نُكتتا جمْعِ الظُّلماتِ وإفرادِ النّورِ:

طـريـقُ الـحـقِّ واحدٌ فلذلك هو واضـحٌ، وطُـرُقُ الـبـاطـلِ كـثيرةٌ ولـذلـك فـهـي غَويَّةٌ

جمعَ النّظمُ الكريمُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لِتنوُّعِ مصادرِ الضّلال وتكاثرِها على العبد، وتعدُّدِ مظاهر الكفرِ الصّريحِ وغيرِ الصّريحِ، التي تُفسدُ على الكافرِ الضّالِّ حياتَه الدّنيا، وتُسعِّرُ عليه الحياةَ الأخرى.

أمّا إفرادُه ﴿ٱلنُّورِ﴾ فلأنّه لا نورَ إلّا من قِبَلِ اللّه تعالى، فـ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: 35]، ففي إفرادِ ﴿ٱلنُّورِ﴾ إيحاءٌ بأنَّ مَنِ ابتغى النّورَ في غيرِ شِرعتِه ومنهاجِه ﷺ ضلَّ سواءَ السّبيلِ، وتاهَ في ظُلمات الضَّلال، فمصدرُ النّور الرّوحيِّ والعقليِّ هو نورُ اللّه تعالى ودينُ اللّه ﷻ، ومنهجُ اللّه وحدَه، فالآيةُ "دالَّةٌ على أنَّ طُرقَ الكفرِ والبدعةِ كثيرَةٌ وأنَّ طريقَ الخيرِ ليس إلّا الواحدَ"[4].

معنَى الواوِ في ﴿وَذَكِّرۡهُم﴾:

التَّـذكـيرُ بـأيّـامِ الـلـه وسـيـلـةٌ مُعينَةٌ للإخراجِ مِنَ الظّلماتِ إلى النّورِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم﴾ هي واوُ العطفِ، والأمرُ بالتَّذكير معطوفٌ على الأمر بالإخراج ﴿أَخۡرِجۡ﴾، فالتَّذكيرُ هو أداةٌ مساعِدةٌ للإخراج منَ الظُّلمات إلى النّور، والمقصودُ بالتَّذكير بأيّام اللّه

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/122.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/239.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/189.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/58.

تعالى، هو التَّذكيرُ بعمومِ النِّعمِ والنِّقمِ، "أي: ذكِّرهم بالأيّام التي سَلَفَتْ لمن كفرَ وما نزلَ بهم فيها، والدّليلُ على أنّ التّذكير مُشتملٌ على الإنْذار والتَّحْذير ممّا نزَل بِمَنْ قبلَهم قولُه ﷻ بعدَ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9]"[1].

فهذه الواوُ عاطفةٌ، ولأنّ كلًّا منَ الفعلَين ﴿وَذَكِّرْهُم﴾، ﴿أَخْرِجْ﴾ إنشائيّان كان العطفُ للتّوسّطِ بين الكمالَين، ولزمَ التّعاطفُ بينَهما، ويجوزُ أن تكونَ الواوُ في قوله سبحانه ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ حاليةً، أي: أخرج قومَك منَ الظّلمات إلى النّور مذكِّرًا لهم بأيّام الله؛ ليتّعِظوا بمصير المكذِّبين، ونجاةِ الموحِّدين الذين وفّقَهمُ الله ﷻ.

غرَضُ الأمرِ في ﴿وَذَكِّرْهُم﴾:

"أمرَ الله ﷻ موسى ﷺ أن يعظَ قومَه بالتّهديدِ بنقَمِ الله تعالى التي أحلَّها بالأممِ الكافرةِ قبْلَهم، وبالتّعديدِ لنِعمِه ﷻ عليهم في المواطنِ المُتقدِّمةِ، وعلى غيرِهم من أهل طاعتِه ليكونَ جريُهم على منهاجِ الذين أنعمَ عليهم وهربُهم من طريق الذين حلَّتْ بهمُ النّقماتِ"[2].

التّرهيبُ بعواقبِ الظّالمين، والتّرغيبُ بنجاةِ المُؤمنين مَنهجٌ قرآنيٌّ للدّعاةِ

والأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ يحتملُ معنى الوجوبِ، وأنَّ الدّعوةَ إلى الله تعالى بدون تذكيرٍ وتحذيرٍ بنِقَمِ الله تعالى على الكافرين، وبنِعَمِه على المؤمنين تبقى دعوةً ناقصةً، وأنّ التّذكيرَ والتّحذيرَ تكليفٌ واجبُ التّنفيذِ، وأنّه ضمْنَ تكاليفِ الإرسالِ، كما يحتملُ الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ أن يكونَ نُصحًا وإرشادًا وتوجيهًا لموسى ﷺ؛ بحيث يَسترشدُ بأيّام الله تعالى، ويذكّرُ قومَه ويحذّرُهم بأنّ سُنّةَ الله تعالى في خلْقِه إهلاكُ الكافرين، وأنّ العاقبةَ للمتقين.

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/155.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/324.

فـ"التّذكيرُ: هو العِظةُ؛ أي: عِظْهم بأيّام الله"[1]، "وخوِّفْهم بمثلِ عذابِ الأممِ الخاليةِ فيحذَروا فيؤمِنوا"[2]، وقد وافقَ الذّكرُ الحكيمُ بين التّذْكيرَين، أي: تذكيرِ هذه الأمّةِ بالأنبياء والأُمم في قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وتذكيرِ أمّةِ موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾[3].

وفيه تذكيرُهم "بالأيّام التي انتقمَ الله ﷻ فيها منَ الأممِ الماضيةِ، فيتّعِظوا، ويزدجِروا، ويخافوا أنْ يصيبَهم مثلُ ما أصابَ مَنْ كان قبْلَهم، ودلَّ على ذلك قولُه بعد الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [إبراهيم: 9]"[4].

بَلاغةُ اسْتِعمالِ حرفِ (الباء):

التَّذكيرُ مقصودُه الـرَّحـمـةُ لا مَحْضُ التَّخويفِ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾ للاستعانةِ، أي: ذكّرْهم مُستعينًا بترغيبِهم وترهيبِهم بالأحداثِ التي وقعت في تلك الأيّام؛ لعلّها تكونُ نِبراسًا يَسْتضيئون به في حياتِهم فيؤمِنوا ويوحِّدوا اللَّه ﷻ؛ فيفوزوا بالرّضوان والجِنانِ، وقد "دَلَّ هذا على جوازِ الوعْظِ المُرقِّقِ لِلْقُلوبِ، المُقَوّي لِلْيَقينِ، الخالي مِنْ كُلِّ بِدْعَةٍ، والمُنَزَّهِ عَنْ كُلِّ ضَلالَةٍ وشُبْهَةٍ"[5].

تَـضْـمـينُ فـعْـلِ التَّـذكـيرِ معنَى الوَعْظِ

ويصحُّ أن تكونَ الباءُ في قول الله تعالى ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾ مُؤذِنةً بِتَضَمُّن الفعلِ ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ معنى الفعلِ (خوِّف)؛ فلمّا "ضُمِّنَ التَّذكيرُ معنى الإنذارِ والوعظِ عُدّي بالباء، أي: ذكِّرهم تذكيرَ عظةٍ بأيّام الله تعالى"[6].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/363.
(2) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 8/573.
(4) مكي، الهداية الى بلوغ النهاية: 5/3774.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/342.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/189.

بَلاغةُ المجاز في قوله: ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾:

الكِنايةُ في استِحضارِ زمَنِ الأحداثِ لا الأحداثِ نفسِها

التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾ كنايةٌ عمّا وقعَ فيها من أحداثٍ عظيمةٍ، سواءٌ منها ما كان غلبةً للموحِّدين ونُصرةً منَ الله تعالى للمؤمنين، أو ما كان من دَمارٍ على الكافرين، وهزيمتِهم على أيدي المؤمنين؛ وذلك "لأنّها أيّامٌ كانت معلومةً عندهم، أنعمَ الله عليهم فيها نعمًا جليلةً، أنقذَهم فيها من آل فرعون بعدَ ما كانوا فيما كانوا فيه منَ العذاب المُهين، وغرَّقَ عدوَّهم فرعونَ وقومَه، وأوْرَثهم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم"(1)؛ فإذا ذُكِرتْ تلك الأيّامُ استُدعيتْ إلى الأذهان أحداثُها بطريق اللّزوم؛ فتحقّقتِ الكنايةُ.

(أيّامُ الله) مجازٌ مُرسلٌ والمقصودُ الأحداثُ

التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾ مجازٌ مرسلٌ أيضًا علاقتُه الزَّمانيَّةُ، إذِ المقصودُ أحداثُها؛ إذ "الأيّامُ يُعبَّر بها عن النِّعم والنِّقم؛ لأنَّها كلَّها تقعُ فيها"(2)؛ فصار الزّمانُ بمثابةِ أن يُذكَّرَ به لذاتِه، فكأنَّ أحداثَه فاضتْ عليه من جلالِها وعِبَرِها ودروسِها؛ حتى صارت تلك الأيّامُ بهذه المثابةِ بين عامّةِ أيّام الدّهرِ. و"في هذه العبارةِ تعظيمُ هذه الكوائنِ المذكَّرِ بها، ومِن هذا المعنى قولُهم: يومٌ عصيبٌ، ويومٌ عبوسٌ، ويومٌ بسّامٌ، وإنّما الحقيقةُ وصفُ ما وقعَ فيه من شدّةٍ أو سرورٍ"(3).

حَمْلُ الأيّامِ على حقيقتِها يُرادُ به ما يكونُ فيها من أرزاقٍ وآجالٍ

ويجوزُ أنْ يكونَ المقصودُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾: "الأيّامَ المعروفةَ نفسَها، أمَرَه أنْ يذكّرَهم بها؛ لأنّ الأيّامَ تأتي بأرزاقِهم؛ وتمضي بأعمالِهم وأعمارِهم؛ إنْ كان خيرًا فخيرٌ وإن كان شرًّا فشرٌّ، وتُفني أعمارَهم وآجالَهم، وفيما تأتي بأرزاقِهم نعمةً منَ الله عليهم، وفي ذهاب أعمارِهم وآجالِهم إظهارُ سلطان الله وقُدرتِه،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/517.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/23.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/324.

فأمرَه أن يذكّرَهم بذلك. واللّه أعلم. وهذا يُشبهُ أن يكونَ أمرَ موسى ﷺ أنْ يذكِّرَ بني إسرائيلَ ما كان عليهم من فرعونَ؛ من أنواع التّعذيبِ، ثمّ الإنجاءَ من بعدُ، يقول - واللّه أعلم - ذكّرْهمُ الأيّامَ الماضيةَ وما يَتلوها، وهذا أشبهُ وأقربُ"[1].

نُكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿بِأَيَّـٰمِ ٱللَّـهِ﴾:

ما كانَ لله تعالى فـمَـرَدُّه إليـه ومآلُه بين يدَيْه

إضافةُ (الأيّام) إلى لفظِ الجلالة (اللّه) تعالى تشريفٌ لأمرِها لِما أفاضَ اللّه تعالى عليهم من نِعَمِه فيها[2]، وزادها تميُّزًا بين سائر الأيّام، على الرّغم من أنَّ الأيّامَ كلَّها أيّامُ اللّه ﷻ، وأنّ الزّمان كان مِلكًا للّه تعالى، غيرَ أنَّ تخصيصَ هذه الأيّامِ بتلك الإضافةِ الشّريفةِ يمنحُها تعظيمًا ويُبوّئها منزلةَ الإجلال، ويزيدُ أحداثَها تقديرًا، ومهابةً، وعبرةً.

بَلاغةُ الالتفاتِ في الآية:

الأيّـامُ ضِمْـنَ سُنَنِ الله تعالى في الأحْداثِ كلِّها

"الالتفاتُ منَ التّكلّم إلى الغَيبةِ بإضافةِ الأيّام إلى الاسمِ الجليلِ ﴿بِأَيَّـٰمِ ٱللَّـهِ﴾ للإيذان بفخامةِ شأنِها، والإشعارِ بعدم اختصاصِ ما فيها منَ المعاملةِ بالمخاطَبِ وقومِه"[3]، ومقتضى الظّاهرِ أن يكونَ النَّظمُ: (وذكِّرهم بأيامي) أو (بأيامنا)؛ لأنّ المتكلّمَ هو اللّه ﷻ، غيرَ أنّ الإضافةَ إلى الضّميرِ ليست في جلال الإضافةِ إلى الاسْمِ العظيم ﴿ٱللَّـهِ﴾ ﷻ، كما أنَّ إضافةَ الأيّامِ إلى لفظِ الجلالةِ على طريق الغيبةِ؛ لإكسابِ الأيّامِ قانونَ السُّنن الذي يجري على جميعِ النّاس، ولو جاء على طريقة التَّكلُّمِ لأفادَ التَّخصيصَ بأيّامٍ معيَّنةٍ.

عِلّة التّعبيرِ بـ (التّذكير بأيّام الله):

ديـنُ الإسـلامِ أسْهلُ الشّرائعِ، وأيْسَرُها

في خطاب موسى ﷺ لم يذكرْ قيْدَ (بإذن اللّه) فلم يقل: (أخرج قومك منَ الظّلمات إلى النّور بإذن اللّه) كما قال في الآية الأولى من

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/363.
(2) الراغب، المفردات: (يوم).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/178.

السورة: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ وذلك لأنّ الأوّلَ خطابٌ للنّبيّ ﷺ وشريعتُه من أسهلِ الشّرائعِ فناسبَ فيها ذكرُ الإذن ليفيدَ معنى السّهولةِ واللّينِ المأذونِ فيهما، والآيةُ ههنا خطابٌ لموسى عليه السلام وقد كانت شريعتُه صعبةً ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: 54][1].

عِلَّةُ فصْلِ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾:

في التَّذكيرِ ثوابٌ لمن يَصبرُ على البلاءِ ويَشكرُ النَّعماءَ

فُصلتْ جملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ عن جملةِ ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنَّ الأولى إنشائيةٌ نوعُها أمرٌ، والثّانيةَ خبريةٌ؛ فبينهما كمالُ انقطاعٍ، ولا يتعاطفان؛ لذلك وقع الفصلُ بينهما، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ معنى التَّعليلِ، أي: ذكّرهم بأيّام الله؛ لأنَّ في التَّذكيرِ آياتٍ لكلِّ من يَرجو ثوابَ الله فيَصبرُ على بلائِه ويشكرُ نَعماءَه.

غرَضُ تقديمِ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾:

آياتُ الله تعالى تَحتاجُ إلى عنايةِ الأذهانِ ورعايةِ الجِنان

﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ وما وقعَ فيها من أحداثٍ جسامٍ تُعدّ آياتٍ من آيات الله تعالى، فكان تقديمُ المسنَدِ إليه ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ للتَّنبيه على ما في الإخراج والتَّذكير من آياتٍ، وأنَّ الاهتمامَ بها والعنايةَ بأمرِها يحتاجُ إلى مزيد رعايةٍ منَ الدّاعي والمَدْعو، ولا يجوزُ اعتبارُ هذا التّقديم للقصرِ والتّخْصيص؛ لأنّ آياتِ الله تعالى لا آخرَ لها، و﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ تعالى المذكورةُ جزءٌ منها، ولا يُحيطُ بها علمًا إلا هو ﷻ.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾:

اشْتِمالُ الحرفِ على المعاني أمارةُ السَّعةِ وبُرهانُ التَّنوّعِ

قال العلّامةُ الطّاهرُ بنُ عاشور: "التَّذْكيرُ بأيّام الله يَشْتَمِلُ على آياتِ قُدْرَةِ الله ﷻ وعِزَّتِه، وتأْييدِ مَنْ أطاعَهُ، وكُلُّ ذلك آياتٌ كائِنَةٌ في الإخْراجِ والتَّذْكيرِ على اخْتِلافِ أحْوالِه، وقد أحاطَ بمعنَى هذا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/440.

الشُّمولِ حَرْفُ الظَّرْفيةِ مِنْ قولِه: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾؛ لِأنَّ الظَّرْفيةَ تَجْمَعُ أشْياءَ مُخْتَلِفَةً يَحْتَويها الظَّرْفُ، ولذلك كانَ لِحَرْفِ الظَّرْفيةِ هُنا مَوْقِعٌ بَليغٌ"[1].

نُكتةُ اسْتِعمال اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

اسمُ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ يَستدْعي تذكُّرَ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ تعالى وأحداثِها لتكونَ حاضرةً في الأذهان كأنها مشاهَدة للعَيان؛ وذلك يُسهمُ في إحياء ذكراها، والإفادةِ من دروسِها، والتماسِ عِبرِها؛ عَلَّها تؤثِّرُ في نفوس القوم فيُقبلوا على دعوة موسى ﷺ بيقينٍ واستبشارٍ.

آياتُ الله تعالى جليلةُ القدْرِ، بَعيدةُ المَنزلةِ؛ لذلك لا يفقَهُها إلّا عالِمٌ مُتدبِّرٌ

وجاءتِ الإشارةُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بلام البُعدِ دلالةً على بُعد منزلةِ تلك الآياتِ في التّأثير على من يتّصفُ بصفتَي ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وهو كلُّ مؤمن منَ المُتَّعِظين بما في تلك الآياتِ من نِعمِ الله تعالى ونِقمِه؛ "لأنّ الشّكرَ والصّبرَ عنوانُ المؤمن"[2].

بَلاغةُ التّوكيدِ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾:

اقتضى جلالُ الدّعوةِ إلى الله تعالى، والعنايةُ بإنْجاءِ القوم منَ الضّلال، وإخراجِهم إلى نور الهدى والرّشادِ التّأكيدَ على أنَّ من شأنِ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ تعالى ومن شأنِ ما فيها مِن عِبَر ودروسٍ نفعَ مَن يُنْعِمُ النّظرَ فيها، وتوكيدَ كونِها من جليلِ العِبرِ وباهرِ الآيات والدّلائلِ على وحدانيّةِ الله تعالى وعظيمِ قُدرته ﷻ على رفعِ أوليائه ونُصرتِهم، وخَفْضِ أعداءِ دينِه وأوليائِهم وخذلانِهم، بل إهلاكِهم بالكلّيةِ، والتّأكيدُ لتحريك هِممٍ من تقعدُ بهم الخواطرُ عن تدبّرِ الأمرِ على حقيقتِه، وتأمّلِ الحالِ على أحقّيتِه.

من شأنِ التّدبُّرِ في (أيـام الله) تعالى نفْعُ المُتدبِّرِ وإنْـجـاؤه مـنَ الشُّرورِ

نُكتةُ جمْعِ (الآيات) وتَنكيرِها:

جمعُ الآيات في قوله تعالى: ﴿لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يفيدُ

آياتُ الله تعالى جليلةُ العِبَرِ، وإنّما يَقْبِسُ منها كلُّ مُؤمنٍ بحسَبِ تدبُّرِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/190.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/300.

كثرتَها، وتكاثرَ عِبَرها ودروسِها الجليّةِ المُستفادةِ من ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾، وأنّها لا تكادُ تتناهى، وإنّما يَقْبِسُ مِن أنوارها كلُّ موحِّدٍ على قدْرِ طاقتِه ووفرةِ إمكاناتِه الإيمانيّةِ، وهذه الكثرةُ الكاثرةُ ضِمْنَ إطار التّوكيدِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فهي (آيات) والآياتُ بحدّ ذاتها قِمَّةُ البهاء، ودليلُ البراعةِ في بابِها، وتنكيرُها يُضْفي عليها العَظَمةَ والفخامةَ والتَّبجيلَ.

معنَى اللّامِ الدّاخلةِ على (كلّ):

الانْتِفاعُ بآياتِ اللهِ تعالى مَخْصوصٌ بكلِّ مُؤمنٍ صَبّارٍ شَكورٍ

اللّامُ الدّاخلةُ على (كلّ) في قولِه تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ هي "اللّامُ المُزحلقةُ للتّوكيدِ"[1]، وتفيدُ الاختصاصَ، وتقرّرُ أنّ آياتِ أيّامِ اللهِ تعالى لا يَنتفعُ بها، ولا يراها، ولا يَنفعلُ لها، ولا يتأثّرُ بها إلّا هذا الصّنْفُ منَ النّاس، الصّنفُ الموصوفُ بصفتَيِ (الصّبر والشّكر) في أرقى صورِها، أمّا غيرُ هذه الطّبقةِ منَ العباد فلا يَقِف على أسرارِها، ولا يتأثّرُ بعِبرِها، "وقيل المرادُ لكلِّ مؤمنٍ وإنّما عبّرَ عنه بذلك تنبيهًا على أنّ الصّبرَ والشُّكرَ عنوانُ المؤمن"[2]، وعلى ذلك ففيها كنايةٌ بطريقِ هذا الاسْتِلزامِ.

بَلاغةُ اسْتِعمالِ لفْظِ العمومِ (كلّ):

عُنوانُ المؤمنِ تَعانُقُ الصّبرِ بالشُّكرِ

لفظُ العمومِ (كلّ) في قولِه تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يَضْمَنُ لِمن يَتَّصفُ بهاتين الصفتَين ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ولمن يَسْتَجْمِعُهما معًا تمامَ الانتفاعِ بتلك الآياتِ، والتّوفيقَ إلى اقتباسِ أنوارِها، واتخاذِها كشّافاتِ هُدًى توصِلُه إلى سبيلِ اللهِ المستقيمِ، ودينِه القويمِ، وأنّ مَن لم ينتفعْ بها ولم يتأثّرْ بها قد خلا قلبُه من صفتَيِ (الصّبرِ والشّكرِ) بتلك النّسبةِ المُؤهّلةِ لهذا التّأثّرِ والانتفاعِ.

والتّعبيرُ بكلمةِ العمومِ في قوله سُبحانه: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/193.

باعتبارِ أنَّ "المؤمنَ صَبورٌ على أمرِ اللّه ﷻ عند البلاءِ الشّديدِ، شَكورٌ للّه تعالى في نِعمِه"[1].

تَوجيهُ تَخْصيصِ ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بالذِّكرِ:

الانْتِفاعُ بالآياتِ على وجْهِها لا يكونُ إلّا من صَبّارٍ شَكورٍ

خصَّ النَّظمُ صفتَي الصَّبّارِ والشَّكورِ بالذِّكر، وذلك لأنَّهم لَمّا كانوا هُمُ المُنْتَفعينَ بتلك الآياتِ صارَتْ كَأنَّها لَيْسَتْ آياتٍ إلّا لهم كما في قولِه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البَقَرَة: 2] وقولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ [النّازعات: 45]، ولا يَبْعُدُ أنْ يُقال: الانْتِفاعُ بِهذا النّوعِ مِنَ التَّذْكيرِ لا يُمْكِنُ حُصولُهُ إلّا لِمَنْ كانَ صابِرًا أوْ شاكِرًا، أمّا الَّذي لا يَكونُ كذلك لَم ينتفعْ بهذه الآيات[2]، وقد "أخذ الشَّعْبي من هذه الآية أنَّ الصّبرَ نصفُ الإيمان والشّكرَ نصْفُه"[3].

سِرُّ اقْتِرانِ وصْفَيْ: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

المؤْمِنُ إنْ أصابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، وإنْ أصابَتْهُ سَرّاءُ شَكرَ

في ذكْرِ هاتين الصّفتَين "تنبيهٌ على أنّ المؤمنَ يجبُ ألّا يَخلوَ زمانُه عن أحد الأمرين: الصّبرِ والشّكرِ؛ لأنَّ الحالَ إمّا أن يكون حالَ بَلية أو حالَ عَطية، فإن جرى الوقتُ على ما يُلائمُ طَبْعَه كان شَكورًا، وإن جرى بما لا يلائمُ طبْعَه كان صَبورًا؛ فالانتفاعُ بهذا التّذكيرِ لا يكونُ إلا لمن كان صابرًا أو شاكرًا"[4].

"ولكَوْنِ الآياتِ مُخْتَلِفَةً، بعضُها آياتُ مَوْعظَةٍ وزَجْرٍ وبعضُها آياتُ مِنَّةٍ وتَرْغيبٍ، جُعِلَتْ مُتَعَلّقَةً بـ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ إذِ الصَّبْرُ مُناسِبٌ لِلزَّجْرِ"[5]؛ و"لأنَّ التَّخْويفَ يَبْعَثُ النَّفْسَ على تَحَمُّلِ مُعاكسَةِ هَواها خيفَةَ الوُقوعِ في سوءِ العاقِبَةِ، والإنْعامَ يَبْعَثُ النَّفْسَ على

(1) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/65.
(3) العز بن عبد السلام، تفسير القرآن: 2/159.
(4) البنتني الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/566.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/190.

الشُّكْرِ، فكانَ ذِكْرُ الصِّفَتَيْنِ ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ تَوْزيعًا لِما أجْمَلَهُ ذِكْرُ أيّامِ اللّه مِنْ أيّامِ بُؤْسٍ وأيّام نعيمٍ"[1].

عِلّةُ العُدولِ عنِ العطْفِ بين الوصْفَين:

الصّبرُ، والشُّكرُ صِفَتان يُحَثُّ بشِدَّةٍ على الاتّصافِ بهما

ذِكْرُ وصْفَي (الصّبرِ)، و(الشّكرِ) مُتتالَين، مُتلازمَين من غير عاطفٍ (الواو)؛ للإيذانِ بأنّهما في تلازُمِهما كالصّفةِ الواحدةِ، وإنّه يمكنُ الجمعُ بينَهما في وقتٍ واحدٍ، وفيه إشارةٌ إلى التّهْييجِ والإلهابِ على الاتّصافِ بهما معًا[2]، على وجه الكمالِ في الموصوفِ لِما فيهما من مشقّةٍ عند ترويضِ النّفس عليهما، ومن هنا استَوجَبا المدحَ والثّناءَ.

سِرّ تَقْديم الصَّبرِ على الشّكرِ:

الشّكرُ ثَمرةٌ من ثَمراتِ الصَّبرِ

يقول رَسولُ اللّه ﷺ: «والصَّبْرُ ضياءٌ»[3]، وذلك الضّياءُ الرّوحيّ يكشفُ للعبدِ الخيرَ منَ الشّرّ، ويضمنُ له النّجاةَ منَ الرُّعونةِ والخِفَّةِ والجَهالةِ؛ فإذا تحقّقَ للعبد ذلك الشُّعاعُ الكاشفُ - أي الصّبرُ - أمكنَه منَ الوصولِ إلى مَرتبةِ الشّاكرين؛ لأنّه سيقفُ على حقائقِ الأمورِ، ويَعرِفُ صِدْقَ الرّسولِ ﷺ، ويدركُ حقيقةَ وجودِ اللّه تعالى، ووَحْدانيّتِه في ذاتِه وصفاتِه، وأنّه المُستحقُّ للحمدِ والشّكرِ على نعمةِ الصّبرِ؛ فالشّكرُ إذن ثمرةٌ من ثمرات الصّبرِ، ولكونِه عاقبةَ الصَّبرِ[4].

بَلاغةُ صيغِ المُبالغةِ في قوله: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

الصَّبّارُ الشَّكورُ وصْفان يَلْتَصِقان بمن بالغَ في العملِ وضبْطِ النَّفسِ

وردت صيغَتا ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ على صيغةِ المُبالغةِ، ممّا يُفصحُ عن كثافةِ الصّبر الذي تُراكمُه آياتُ ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾ تعالى في نفس الصّابرِ حتى يصيرَ (صبّارًا)، ولا شكَّ أنّ بلوغَه مرتبةَ الـ ﴿صَبَّارٍ﴾ لا تتأتّى إلّا لِخُلَّصِ النّاسِ، وأنّها كلّما اكتملتْ واستتبَّتْ بلغتْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/191.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/440.
(3) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (454).
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 7/85.

بصاحبِها مرتبةَ الـ ﴿شَكُورٍ﴾؛ لأنّها مرتبةٌ عُليا كذلك، وهي إشارةٌ إلى أنَّ الخروجَ منَ الظّلمات إلى النّور على جميع مراتبِها يحتاجُ إلى صبرٍ وشكرٍ دائبَيْن، كما أنَّ التَّذكيرَ والتَّذكُّرَ يحتاجان إلى هاتين الصّفتَين العظيمتَين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الشّكرُ والمدحُ والحمدُ:

الشُّكرُ يكونُ باللّسانِ والجوارحِ، والحمدُ يكونُ باللّسانِ

الفرق بينَهما أنَّ الشّكرَ أعمُّ من جهة أنواعِه وأسبابِه، وأخصُّ من جهة متعلَّقاتِه فيه. والحمدُ أعمُّ من جهة المُتعلَّقاتِ، وأخصُّ من جهة الأسبابِ. ومعنى هذا أنَّ: الحمد: الثّناءُ الجميلُ على من يعملُ أعمالًا اختياريّةً عامّةَ النّفعِ، ودافعةً للضّررِ للوجودِ كلِّه بحكمةٍ من يفعلُها، والمدحُ: الثّناءُ على الصّفاتِ الذّاتيةِ، والشّخصيّةِ الطيّبةِ، فيقال: مدحتُ الصّفاتِ الطّيّبةَ في فلانٍ، ولا يقال: حمدْتُها، إنّما يقالُ: حمدتُ اللّه تعالى ومدحتُ خصالَ فلانٍ، فالباعثُ في الحمدِ أعمالُ الإنعامِ والخيرِ، والباعثُ على المدحِ الشّخصُ والذّاتُ، فيقال: مدحتُ الجميلَ في صفاتِه الحسنةِ، وخلالِه الكريمةِ، ولا يقال حمدْتُه.

والشّكرُ: امتلاءُ النّفسِ بالإحساسِ بالنّعمةِ، واندفاعُ النّفسِ إلى الطّاعةِ والخضوعِ، والقيامِ بحقّ المُنعمِ ومقابلةِ الفضلِ والنّعمةِ بالإحسانِ في الطّاعةِ والواجباتِ[1]، فـ"الشُّكرُ يكونُ بالقلبِ خُضوعًا واستكانةً، وباللّسانِ ثناءً واعترافًا، وبالجوارحِ طاعةً وانقيادًا؛ ومُتعلَّقُهُ النِعَمُ دونَ الأوصافِ الذّاتيّةِ، فلا يقال: شكرْنا اللّه على حياتِه وسمْعِه وبصَرِه وعلْمِه، وهو المحمودُ بها، كما هو محمودٌ على إحسانِه وعدْلِه، والشّكرُ يكونُ على الإحسانِ والنِّعَمِ، فكلُّ ما يتعلّقُ به الشّكرُ يتعلّقُ به الحمدُ من غير عكسٍ، وكلُّ ما يقعُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/55 - 56.

به الحمدُ يقعُ به الشّكرُ من غير عكْسٍ، فإنَّ الشّكرَ يقعُ بالجوارحِ، والحمدَ باللّسانِ"[1].

الشُّكْرُ لا يكونُ إلّا عَن يَدٍ، والحَمْدُ يكونُ عَن يَدٍ وعَن غيرِ يَدٍ

فالحمدُ والشّكرُ يَتلاقَيان ويَختلِفان، فيَتلاقَيان في معنى الإحساسِ بالنّعمةِ والقيامِ بحقِّها، وما يجبُ بالنّسبةِ للمُنعمِ، ولكنّهما يَختلِفان في القيامِ بحقِّ المُنعمِ، فالقيامُ بحقّ المُنعمِ في الشّكرِ: الطّاعةُ والعملُ وجعلُ الجوارحِ كلِّها في طاعة اللّه تعالى، والخضوعُ المطلقُ للّه تعالى في كلّ شأن من شؤونِه، وحالٍ من أحوالِه، والقيامُ بحقّ المُنعمِ في الحمد: الثّناءُ على اللّه تعالى ثناءً مُطلقًا كاملًا مع تذكّرِ نَعمائِه، وتذكّرِ ما يُحيطُه منَ الوجودِ كلِّه، لا في ناحيةٍ من نواحي شخْصِه[2].

والشُّكْرُ لا يكون إلّا ثَناءً ليدٍ أوليتَها، والحمدُ قدْ يكونُ شُكْرًا للصَّنيعة ويكونُ ابْتِداءً للثّناء على الرَّجُل، فحمدُ اللّه الثَّناءُ عليه، ويكونُ شُكرًا لِنِعَمِه الَّتي شَمِلَت الكُلَّ[3]. فالشُّكْرُ لا يكونُ إلّا عَن يَدٍ، والحَمدُ يكونُ عَن يَدٍ وعَن غير يَدٍ[4]. وممّا تقدّمَ يتبيّنُ علّةُ اخْتيارِ لفظِ (الشّكور) بعد ذكر الآيات التي أنزلَها اللّه تعالى بوصْفِها عطايا تَستحقُّ الشّكرَ بالطّاعة، والعملِ وإخضاعِ الجوارحِ والخضوعِ المُطلقِ للّه تعالى.

(1) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/340.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/56.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد).
(4) ابن سيده، المحكم: (حمد)، و(شكر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»